



مصطلح النقد في العربية



د. السعيد السيد عبادة - مصر

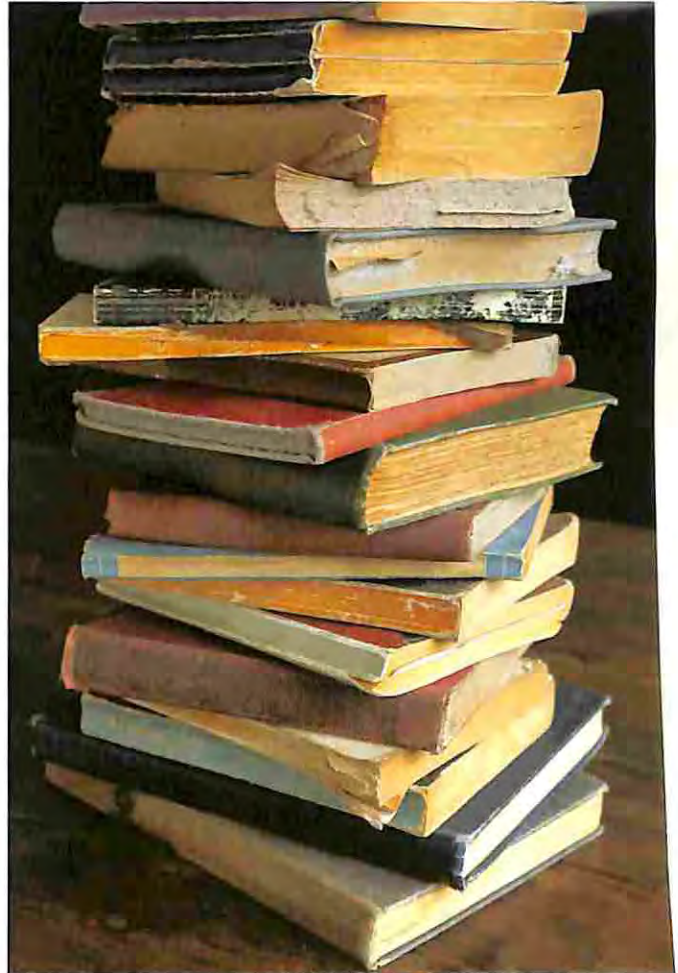
**في مجال التأصيل لهذا المصطلح (النقد) أزجي
هذه الحقائق:
الحقيقة الأولى:**

أن ما نحن بصددده من كلمة قد استعملت
لأكثر من معنى، قال في (القاموس): «النقد:
خلاف النسيئة، وتمييز الدراهم وغيرها،
كالنقد والانتقاد والتنقد، وإعطاء النقد،
والنقر بالإصبع في الجوز، وأن يضرب الطائر
بمنقاده - أي بمنقاره - في الفخ، والوازن من
الدراهم، واختلاس النظر نحو الشيء، ولدغ
الحية.. وانتقد الدراهم؛ قبضها.. وناقده؛
ناقشه..»^(١)

الحقيقة الثانية:

أن النقد بمعنى التمييز مما خُلِقَ عليه
الإنسان؛ بدليل أنه لا يخلو من هذا التمييز
إلا غير السوي، لكن الناس على اشتراكهم
في تلك النعمة مختلفون فيما أوتوه منها، إلى
الحد الذي لا اتفاق بين اثنين فيه.

وكأنما لذلك الذي لاشك فيه، من أن
التمييز خُلِقَ، كان ما وجدت في دراستي
لنقد أبي العلاء، من إثارة التعبير بالغريزة،



النقد بمعنى التمييز مما خلق عليه الإنسان بدليل أنه لا يخلو من هذا التمييز إلا غير السوي.

ساعده: «كان قس حكيما من حكماء العرب، مقدما فيهم، واعظا حسنا، وخطيبا لسننا، قد نقد الكلام، وهذبتة الأيام، تضرب بحكمته الأمثال^(٨)»، وقول أبي الدرداء رضي الله عنه (ت ٣٢هـ)^(٩): «إن نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تركوك^(١٠)».

ولئن قيل: إن المصطلح في الكلام لم يكن قبل العصر العباسي؛ لأنه لم يرد قبل قول المفضل الضبي (ت ١٦٨هـ أو ١٧٨هـ)^(١١) عن حماد الراوية (٩٥-١٥٥هـ)^(١٢): «لقد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدا. فقليل له: وكيف ذلك، أيخطئ في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب. ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟^(١٣)».

لئن قيل هذا، قلت: إن المصطلح في الكلام قد ورد قبل قول المفضل، ليس فيما أوردت للجارود وأبي الدرداء فحسب، بل في قول الشعبي (ت ١٠٣هـ)^(١٤). أيضا عن أناس شهدهم: «ما شهدت مثلهم أشد تناقدا في مجلس، ولا أحسن فهما عن محدث^(١٥)».

ويجعله كالأصل أو مقاربا له من جهة أخرى، فإذا كان الأصل - أي نقد الدراهم - مطلوباً في الشكل والمضمون، وجب أن يكون الفرع كذلك، في الشكل الفني والمضمون المعنوي. وإذا كانت السلامة الجسدية أولى غايات الأصل، فإن السلامة النفسية أولى غايات الفرع. ومن الغايتين وبهما يكون التأهيل والتكليف للذي حارت البرية فيه.

الحقيقة الرابعة:

أن مصطلح (النقد) قديم، كان في المال منذ الجاهلية، على ما يبدو من قول امرئ القيس عن الناقة:

كأن صليل المرو حين تطيره

صليل زُيُوف يُنقدن بعبقرا^(١٦)

وقول الأعشى لبائع الخمر:

دراهمنا كلها جيد

فلا تحبسنا بتنقادها^(١٧)

ثم كان في الكلام منذ صدر الإسلام، على ما يبدو من قول الجارود العبيدي رضي الله عنه (ت ٢٠هـ)^(١٨) عن قس بن

عن الذوق أو الموهبة، كما في قوله مناجيا: «رب الغسق واللمع»، ذكرك أحب إلى السمع، من قيل عجرة، بين شعراء ورجزة، وهبت لهم الغرائز، فجعلوا الصفات، لكل مال صفات، أو لمومس هلوك، بثس ذخيرة الصعلوك^(١٩). وكما في قوله عن الشعر: «الشعر كلام موزون، تقلبه الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس^(٢٠)».

الحقيقة الثالثة:

أن مصطلح (النقد) لم يكن في الكلام أول ما كان، بل كان في المال، بدليل قول الزمخشري (ت ٥٢٨هـ):

«نقد الثمن، ونقد له، فانتقد. ونقد النقاد الدراهم: ميز جيدها من رديئها. ونقد جيد، ونقود جيد، وتنقود الورق، قال:»

كما تنقود عند الجهبذ الورق

...

ومن المجاز: نقد الكلام، وهو من نقدة الشعر ونقاده... وانتقد الشعر على قائله، وهو ينقد إلى الشيء: يديم النظر إليه باختلاس حتى لا يفطن له^(٢١).

إذ يعني ما ذكر أن النقد المجازي - في الكلام والشعر - كان من النقد الحقيقي في الدراهم، وإذا فالمصطلح في الكلام فرع عن المصطلح في المال، أي هو مصطلح عن مصطلح، مما يعطيه أصالة في الاصطلاحية من جهة.



الحقيقة الخامسة:

أن (النقد) في الكلام - كالنقد في المال - لم يكن منذ كان إلا من أهله : أي من ذوي الاستعداد السليم، والنظر الفاحص، والفكر الثاقب، والدربة المتصلة، والثقافة الشاملة، كما أنه لم يكن منذ كان لتمييز الجيد من الرديء فحسب، بل كان لتمييز الصحيح من المنتحل أيضاً، وهما الاتجاهان اللذان شغلا النقد ولا يزالان، حتى كان من أثر ذلك في القرن الرابع وتاليه، أن تأكد مفهوم (النقد) على نحو لا يقل كثيراً عن مفهومه في العصر الحديث؛ إذ صار يعني: دراسة النصوص وتحليلها لتفسيرها وتقويمها، كما يعني تزويد الأدباء والمتذوقين ب زاد من القيم الفنية التي ترشدتهم في الإبداع والتذوق^(١٦). لكن يبقى للعصر الحديث فيما يتصل باستعمال (النقد) ومفهومه أمران:

الأول: أنه صار به في الغالب، إلى تركيب جديد، هو تركيب (النقد الأدبي)، ذلك التركيب الذي لم يكن من قبل، والذي صار عنواناً على هذا الفرع من فروع الدراسة الأدبية، وبه تميز (نقد الأدب) عن فروع النقد الأخرى، كالنقد التاريخي، والنقد الفني.

والثاني: أن فهمه للنقد الأدبي - وإن لم يخرج عن إطار التفسير والتقويم والتوجيه - قد تطور واختلف: بحيث لم يعد (النقد) الآن مجرد دراسة جزئية وتقويم جزئي للنص في حدود الأدب القومي، بل

أصبح دراسة شاملة لبعض أو لكل جوانب النص الأدبي - من شعر وقصة ومسرحية - دراسة تكشف عن مظاهر النضج الفني، وتميزها عما عداها، بالشرح والتعليل، مع النظر في تقويم هذا النضج إلى طبيعة القائل ومذهبه والجنس الأدبي الذي قال فيه، والأثر الذي أحدثه بقوله، ومدى ما أضافه إلى أدب أمته بهذا القول من جهة، وإلى الأدب العالمي من جهة أخرى^(١٧).



الجاحظ

الحقيقة السادسة:

أن (النقد) في الكلام - كالنقد في المال - من مطالب الحياة، فكما أنه لا غنى في التعامل عن الثاني، فكذلك لا غنى في البيان عن الأول : إذ كان ولا يزال من المطالب اللغوية والأدبية والخلقية والدينية.

أما أنه من المطالب اللغوية فأيته أمران : أحدهما: ما ثبت بالدرس، من أن الفصحى لم تصل

إلى ما وصلت إليه في الجاهلية دون صحبة الذوق النقدي في التمييز والاختيار^(١٨)، والآخر: ما كان للنقد منذ الجاهلية من حراسة الفصحى، والارتفاع بها عن أي تجاوز أو خطأ أو لحن، والأخبار والمؤلفات في ذلك مستقيضة^(١٩).

وأما أنه من المطالب الأدبية فأيته أمران أيضاً، أحدهما: ذلك التطور الرائع للبيان والشعر في الجاهلية حتى كان من قولهم الجامع: لكل مقام مقال، وحتى كان للشعر ما كان من أوزان وأعاريض، هي لا شك ثمرة لمراحل من التجريب والتمييز: والآخر: ما كان للنقد حتى القرن الخامس الهجري من متابعة للبيان والنظم، كان من نتاجها ذلك التراث النقدي الذي نخص بالذكر منه: البيان والتبيين للجاحظ، والموازنة بين الطائيين للآمدي، والوساطة بين المتبني وخصومه للقاضي الجرجاني، وأسرار البلاغة لعبد القاهر، والعمدة لابن رشيق.

وأما أنه من المطالب الدينية والخلقية فأمور:

منها: أن به يتميز البيان المعجز - بيان القرآن - من بيان البشر، ذلك التميز الذي حثنا الحق جل وعلا على تبينه، حيث قال عز من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢٠) (النساء)، وكأنما لذلك كان ما كان من دراسات كاشفة عن هذا الإعجاز، ولا سيما دراسة

الباقلائي: إعجاز القرآن، ودراسة عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ومنها: أننا نعوذ بالنقد إذا انتهكت الأعراض - بهجاء أو غزل - على ما يبدو من موقف عمر رضي الله عنه، حين استعدها

الزبرقان على الحطيئة لهجائه إياه، حيث سأل عمر حسان عما قال الحطيئة، وبرأي حسان النقدي كان ما كان من حبس الحطيئة^(٢٠). ومنها: أن بالنقد كان ما ينبغي

من أدب هادف، يصدر عن قيم الدين والخلق، على الرغم من غلبة النظر إلى الفن الخالص في التقويم. والاتجاهان قديمان، كانا ولا يزالان، والحديث عنهما يطول ■

الهوامش:

- (١) القاموس المحيط: للفيروز آبادي ٣٢٩/١ طبعة الأميرية ١٣٠١هـ.
- (٢) الفصول والغايات ٢٥٩/١. تصحيح محمود زنتاتي. مطبعة حجازي ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م. الفسق: ظلمة أول الليل. واللمع: من لمع الصبح. والمال ها هنا: الرجل الكثير المال. والصفقات: الشديد الجافي. والمومس الهلوك: الفاجرة التي تتهالك على الرجال.
- (٣) رسالة الغفران ٢٥١. تحقيق د. عائشة عبد الرحمن - الطبعة الخامسة بدار المعارف ١٩٦٩م.
- (٤) أساس البلاغة: نقد - طبعة دار الشعب ١٩٦٠م.
- (٥) ديوانه ٦٤ - طبعة دار المعارف الثالثة، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٩م.
- الصليل: الصوت. المرو: الحجارة. ومعنى تطيره: تفرقه. وعبقر: موضع باليمن،
- كانت دراهمه زيوفا. والزيوف: الرديئة. واحدها زائف وزيف، وإنما خصها لأن صوتها أشد من صوت غيرها لكثرة نحاسها.
- (٦) ديوانه ١٠٧، الطبعة الثانية ببيروت ١٩٦٨. شرح وتعليق د. محمد حسين.
- (٧) الطبقات الكبير: لابن سعد ١٢٢/٨ طبعة خاصة من مكتبة الخانجي لمكتبة الأسرة بتحقيق د. علي محمد عمر.
- (٨) قس بن ساعدة الإيادي: للدكتور أحمد الربيعي ص ٢٢٢ (النصف ١٣٩٤هـ) عن: مقتضب الأثر في النص على الأئمة الاثنا عشر (للعياشي، ت ٤٠١هـ) ص ٢٤ (النصف ١٣٤٦هـ).
- (٩) الطبقات الكبير ٢٩٧/٩.
- (١٠) النهاية في غريب الحديث والأثر: نقد (١٠٤/٥)، واللسان: نقد (٤/٤٣٦).
- (١١) الأعلام: للزركلي ٢٨٠/٨ الطبعة الرابعة ببيروت ١٩٧٩.
- (١٢) المرجع السابق ٢٧٢/٢.
- (١٣) الأغاني - طبعة دار الكتب - ٨٩/٦.
- (١٤) نشأة النقد الأدبي عند العرب، لكتاب هذه السطور، ص ١٦، ١٢.
- (١٥) النقد الأدبي الحديث (د. غنيمي هلال) ٢٠-٢.
- (١٦) نشأة النقد الأدبي عند العرب، مصدر سابق.
- (١٧) النقد الأدبي الحديث - مصدر سابق.
- (١٨) نشأة النقد الأدبي عند العرب ٤٦.
- (١٩) انظر: ما تلحن فيه العامة لغير عالم في (إنباه الرواة ٢٧٣/٤)، و(وقيات الأعيان ٥٤١/٨).
- (٢١) انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١١٦/١ الطبعة الثانية، مطبعة المدني ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

شعر: محمد الطيب عربي - السودان

فجر الحقيقة في الأفاق قد وضحا
محمد خاتم للرسول أجمعهم
إرهاصة الخير بانت يوم مولده
الجن والإنس والأملأك تعرفه
يمشي على الأرض قرآنا يجسده
ما كان فظا غليظ القلب فاجتمعت

للباحثين طويلا عنه قد سنحا
وسيد الخلق عند الله ما برحا
الكون بالقادم المحمود قد فرحا
الأرض والملاأ الأعلى به فرحا
خلق عظيم له الرحمن قد منحا
من حوله الناس ما شخص به قد حا

الطيب
عربي